مفاهيم الحرّية

حلقة دراسات برعاية المنظمة العالمية لحرّية الثقافة
المركز الاقليمي في الشرق الأوسط

العربي المعاصر شخصية غامضة

بقلم

الدكتور نقولا زياده



بيروت - لبنان
٢٣ - ٢٤ ايار ١٩٥٦

العربي المعاصر شخصية غامضة

بقلم

الدكتور نقولا زياده

يخيل الينا ان العربي المعاصر هو كمية مجهولة ، وشخصية يكتنفها الكثير من الغموض. ولذلك فالتعرف اليها يقتضي الكثير من الجهد ، والاكثر من الاناة والمعرفة . ولعلنا نحسن صنعا اذا نحن حاولنا ، قبل كل شي ، ان نتعرف الى اسباب هذا الغموض الذى يكتنف الشخصية العربية المعاصرة . فاذا عرفنا هذه الاسباب ، استطعنا ان نزيلها او نزيل بعضها على الاقل . ونحن واجدون ان في مقدمة هذه اسباب اتصالها العميق المتين بالبداوة . فالعالم العربي ربع سكانه ، ان لم يكن ثلثهم ، بدو رحل او هم قريبون من ذلك . وهذه البداوة وما نجدها معها من عقلية قبلية ، وعصبية عشائرية ، تؤدى بالجماعة البدوية الى امرين : اولهما انعدام الولاء للجماعة الكبيرة ، اذ ان الولاء مقصور على العشيرة او القبيلة ، والثاني انها تمحو الحرية الفردية . ذلك ان الفرد انما هو قائم وموجود وعائش وحي ومعترف به لانه " واحد " من "كل " هو " كل العشيرة " او " كل القبيلة " . واذا تجلت " فردية " هذا الواحد بين البدو او ظهرت ، فانها تظهر فقط عندما يكون فيها مطمع او فائدة ، لا عندما تكون القضية قضية شخصية حرة ، او حرية شخصية . ومعنى هذا ان نحو ثلث السكان في العالم العربي ، او ربعهم على الاقل ، لا تبدو شخصيتهم افرادا على حقيقتها بما فيها من الكرامة الانسانية الفردية ، لانهم موجودون بسبب وجود جماعتهم الصغيرة .

ولو ان اثر البداوة وما تتركه من عقلية بدوية وعصبية قبلية واندفاع عشائرى اقتصر على البدو انفسهم لهان الامر . ولكن الواقع ان اثرهم يعدو ذلك ، اذ ان هؤلاء البدو هم الذين غذوا ويغذون الجماعات المستقرة ، ورفدوا ويرفدون المدن والقرى بالسكان ، وكثروا ويكثرون سكان الريف من الزراع وغيرهم . فاصل الغالبة المطلقة من سكان الاجزاء الحضرية او المتحضرة من العالم العربي تمت الى البدو والصحراء بصلة وثيقة من القربى . ولان هذه التغذية وهذا الرفد وهذا التكثير مستمر عبر الاجيال ، فاثر البداوة ينتقل باستمرار الى هؤلاء المتحضرين ، بحيث لا يكاد يشرف تأثير موجة او جماعة على الانتشار ، حتى تأتي موجة اخرى او جماعة اخرى وتحمل

...

...

معها كل هذه الآثار من جديد . ونحن اذا امعنا النظر في القرية العربية والمدينة العربية في كل قطر عربي لوجدنا على العموم ان الارتباط والتشابك والتمازج تقوم على اسس مصلحة مشتركة تدور حول العائلة والحامولة (الحمولة) والعشيرة . وهنا تنتهي كما ينتهي الولاء . وحتى هذا الولاء الطائفي او الديني الذى نراه في بعض الاقطار العربية ، لو تفحصناه لوجدنا انه مرتبط بالعشيرة ، بمعنى ان افراد الطائفة ، في جزئيات هذه الطائفة ، لا يقتصر التمازج بينهم على كونهم يؤمنون بعقيدة واحدة ويقومون بعباداتهم بطقوس معينة ، ولكن كون الافراد ، في هذه الجزئيات ، بينهم من التراحم والقربى المدعومة بصلة الدم والنسب ما يقوى الشعور الطائفي . والدليل على تغلغل هذا الشعور البدوى في الحياة العربية ، هو كون ابناء الطائفة الواحدة يتكتلون فيما بينهم عائلات وحمائل وعشائر على اشد ما يكون التكتل .

هذه الحياة البدوية وما تفرزها غددها الاجتماعية في نفوس الناس في العالم العربي من مصل يقوى الانقسام العمودى عشائريا ، ويجعل هذه العقلية القبلية جزئية النظرة ، موزعة الولاء ، مبتورة القيم السامة . وهي لذلك تحجب هذه الشخصية العربية ، وتحيطها بحجاب كثيف يمنع استشفاءها والتعرف عليها .

وقد كان من الممكن ان يقل اثر الحياة البدوية وتنعدم آثارها العقلية والاجتماعية لو ان هذا العربي اتيح له ما يفتح منه الذهن ، وينير منه النفس والقلب . ولكن الذى حدث عكس ذلك تماما . ذلك انه لما انفتح عقله واخذ في سبر غور الكون ونظامه بدا فيه الانسان العربي المفكر . لكن ذلك كان فترة قصيرة لم تلبث ان انقفل عليها الباب ، ولم يفتح ثانية الا قبل مدة قصيرة ، ولكنه ليس انفتاحا تاما بعد . وهكذا فقد مر على هذه الشخصية العربية قرون وقرون وهي تسير في ظلام فوقه ظلام . لقد انكمشت على نفسها وقلت حاجاتها الفكرية ، وانطوت على ذاتها ، واكتفت بما عندها ، وقنعت بهذا اليسير . وكانت كلما تفاعلت هذه الامور في الجماعة العربية بعضها بالبعض الاخر ، زاد الانكماش ، وقلت الحاجة وقوى الاكتفاء ، واستقرت الثقافة التقليدية في دروب اقوى واخاديد اعمق ، بحيث تزداد سيطرتها على اتجاه الفكر وتياراته . وترتب على ذلك ، على سبيل المثال ، ان قنعت الشخصية العربية

..:..



بمتون وخلاصات للمتون تتلوها وتقرأها وتكررها وتعيد قراءتها وتلاوتها ، جيلا بعد جيل ، بحيث لم تعد تألف هذه الشخصية العربية الحياة الا اذا صاحبتها هذه القراءات والتلاوات على نمط واحد واسلوب واحد وبشكل خاص . وبذلك انغلقت النفس العربية على نفسها فلم تقبل ، اذ لم تكن باستطاعتها ان تقبل ، اختبارات عرفتها جماعات اخرى . وهي لم تقبل اولا لانها الفت مساقا في حياتها خاصا فليس لها ان تحيد عنه ، وثانيا لانها اصبحت فريسة غرور يزين لها ان كل ما يأتي من خارجها هو اقل مما عندها ودونه ، وثالثا لانها بسبب الاعتداد والغرور فقدت القدرة على تفهم ما يأتي من الخارج . ومن ثم فهذا التكافوء والاتزان بين الحاجات القليلة الضئيلة للجماعة وبين المصدر الذى يغذيها ويزودها بمقوماتها الخلقية والعقلية والاجتماعية استمرا قرونا طويلة دون ان يمسهما خير او شر . وقد نتج عن استمرارهما هذه الفترة الطويلة ان اصاب الحياة الفكرية الاسن — وهي الحياة التي بدت فيها ديناميكية قوية يوم كانت متفتحة منفتحة .

وهكذا فهذا العربي الذى كان قد اخذ بلباب المنطق يكيف له تفكيره وتعلق باسباب العلم يفسر له الكون ومجاهله ، وتمنطق بحكم العقل يحلل له الاصول والفروع ، لم يلبث ان تخلى عن المنطق ، وابتعد عن العلم ، حتى لكأنه خشي احكام العقل . فاذا دهمته قضية من قضايا الفكر لم يعد ينقب عن حلولها فيما يمكنه ان يبتكر ، ولكنه يفتش عن حلولها فيما يمكنه ان ينقل . ومن هنا عدل عن التفكير في الاسباب الى قبول احد حكمين : اما حكم ميثولوجي خرافي قد يرضي الخيال وقد يشبع رغبة النفس في التمطي ، ولكنه على كل حال لا يرتكز الى اساس من عقل او علم او منطق ، او انه يقبل بالحكم المتافزيقي الذى يحل المشاكل بتسليمها كلها الى قوى عليا لا سبيل للانسان الى ادراكها او ادراك حكمتها . وفي الحالين يقبل القضية على انها امر مسلم به لا يمكن مناقشته بل نقضه ، اذ ان ذلك يعني ثورة ، وهذا ما لا يجوز . وهنا ضاعت قيمة الفرد وكرامته الشخصية في فيافي هذه السلطات التي احتكرت لنفسها تفسير كل امر وتحديده .

وقبول الفكر العربي في مدى القرون الطويلة التي مرت عليه منذ ان انغلق على نفسه لهذه " السلطة العليا " حد من امتداده وقصر افاقه . وتألب عليه مجتمع مقلد وثقافة تقليدية ، فيها من الاسن الشيء الكثير ، فخبت فيه ناره واصبحت رمادا ، وحتى هذا الرماد ليس من ينفخ فيه . وقد

...



يطول بنا الوقت لو اننا اخذنا بتعداد الامثلة على الفرق بين العربي الذى كان منفتحا ، والعربي بعد ان اوصدت دونه ابواب الفكر قرونا ، ولكن اسمحوا لي ان اذكركم بالعصر الذى عاش فيه بن رشد ، والقرن الثامن عشر الميلادى مثلا . وليس المقصود بالمقابلة الناحية الفلسفية من حياة العالم العربي ، ولكن الحياة اجمالا في فلسفتها وايمانها وتصوفها وقضائها وتجارتها وشعرها وكل ما فيها . قابلوا التيارات التي كانت تحمل الى العربي وتحمل منه ، تنقل اليه وتنقل عنه في ايام ابن رشد ، والابواب التي تقفل دونه ، والحواجز التي توضع في طريقه في القرن الثامن عشر . اضيفوا الى ذلك ان القرن الثامن عشر كان ، بالنسبة الى التاريخ العالمي ، عصرا اغتنى بالكثير من التجارب والاختبارات ، فكان عنده ما يعطي العربي ، بينما القرن الثامن عشر ، بالنسبة للتاريخ العربي ، فترة من فترات التدني . واذن فقد اصبح الفرق يومها بين المجموعة العربية والمجموعات الاخرى ، التي سارت قدما في الغرب ، كبيرا جدا ، اذ انه يمثل قرون سير بالنسبة للغرب مضافا اليها قرون ركود بالنسبة للعرب . وكان ذلك يختبر ويجرب ويشرق ويغرب ويعلو ويهبط ، بينما كان هذا قابعا في حجرة مكتفيا بالبصيص من نوره ، قانعا بكسرة الخبز في جرابه ، مطمئنا الى قوقعته . يمضغ خلاصاته ويجترها وهو يحسب انه تغذى وما عرف انه يمتص نفسه مرة بعد مرة ولا يضيف قطرة واحدة من دم جديد . ويقنع بالتفسير الميثولوجي او الحكم الميتافيزيقي ، وهو يحسب ، بسبب ارتباط هذا بالسلطة العليا التي لا تعلوها قدرة ، انه حصل على القول الفصل في كل مسألة .

ولانه كان بدويا في قيمه الاجتماعية وانقساماته وتحزباته وولائه ، ولانه كان جاهلا مغرورا مخدوعا مستكينا ، ولان غيره كان اقوى منه على الكفاح ، واقدر منه على الحياة فرض على الجماعة العربية ان تخسر حتى استقلالها السياسي على ما هو معروف عن الجماعة البدوية من المحافظة على هذا الاستقلال . وفقدان الحرية السياسية زاد كل مصائب الجهل قوة لانه اضاف اليها الفقر والذل . وهكذا فالعربي الانسان ، او الانسان العربي انحجب واحاط به الغموض ، وقلقت شخصيته واضطربت على الباحث ، وغمضت حتى على العرب انفسهم .

...

...

ولعله مما زاد الغموض والاضطراب هو ان القرن العشرين اخذ العربي اخذا عنيفا ، اذ وضعه ، خاصة منذ الحرب العالمية الاولى ، في مهاب رياح عاصفة هبت عليه من كل صوب ، فحملت اليه آراء متناقضة . فاتجه افراد يسارا ، وسار آخرون يمينا ، اولئك بالوعود الخلابة ، واخذ هؤلاء بالحمية والنخوة للدفاع عن تراث عظيم ، ولو انهم لم يفهموا هذا التراث فهما صحيحا لانه اغلق عليهم امره ، ولم يدركوا منه الا ما قبله الفهم التقليدى للامور . وتغلغلت آراء كثيرة ونظريات متعددة تدعو الى هذا وذاك ، ووقعت على نفوس لم تقو بعد عيدانها ، ولم تعرف بعد كنه ذاتها ، وبذلك اصابها من الانحراف شيء كثير .

ولكن هل معنى هذا ان الانسان العربي يجب ان يعتبر في ذمة التاريخ البائد وان وجوده والتحدث عنه من اساطير الاولين ؟ ام ان هذه " الشخصية " لا تزال موجودة ، رغم انها محجوبة ؟

هذه هي القضية ، فما هو موقفنا منها ؟ انقفل كتاب التاريخ ونقول لا حول ولا قوة الا بالله ؟ ام نفتح كتاب المستقبل ونقول لا حول ولا قوة الا بهذا الانسان العربي ؟

